مجلة اللغة العربية وآدابها
السنة ١١، العدد ٣، خريف ١٤٣٦ هـ
صفحة ٥٣٣- ٥٥٣

بين الجرجاني وهاليدي في التقديم والتأخير والبنية النصية

علي رضا محمدرضايي[١]، راضية سادات سادات حسيني[٢]*

١. أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة طهران، فرديس الفارابي

٢. دكتوراه في اللغة العربية وآدابها

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٥/٩/٣٠ ؛ تاريخ القبول: ٢٠١٥/١٠/٤)

الملخّص

البنية النصية من إحدى البنى التي يكون لها دورها الأبرز والأظهر في الإيصال الى المعنى لأنها مع العناية بحال المتكلم والمخاطب ترتّب وتنسّق بين معلومات البنى الأخرى تحت مجهر العوامل البنيوية وغير البنيوية. نشاهد هذا الاهتمام بالبنية النصية ومكوّناتها (منها البنية التقدمية- التأخرية والبنية المعلوماتية) عند عبد القاهر الجرجاني رائد علم المعاني ومنظّره حيثما يدرس بنية النص بالنسبة الى ترتيب عناصرها وتقدمها وتأخرها في باب من أبواب كتابه المسمّى بـ(التقديم والتأخير). فهو في هذا الباب بعنايته الكبيرة بسياق الحال وعناصرها كحال المتكلم والمخاطب يؤكد تأكيداً شديداً على مكانة المتكلم والسامع ودورهما في تقديم كلمة وتأخير أخرى تحت أساليب مختلفة كالاستفهام والنفي والخبر في الكلام. حاولنا في هذا المقال، ضمن المنهج الفني، أن نقارن بين آراء عبد القاهر وهليدي في البنية النصية ومكونتيها لكي نبيّن كيفية تعامل علمائنا القدامى مع اللغة ووحداتها كالجمل والنصوص وكيفية إدخالهم العناصر الخارجة عن اللغة لتحليلها؛ الكيفية التي قد وصل إليها الغربيون المعاصرون بالجهد والممارسة ووسّعوها ونسّقوها حالما نحن المسلمين مع وجود هذه الأرضية المثمرة المسبقة قد أغفلنا عنها. نريد أيضاً تطبيق منهج هليدي في تطرّقه الى البنية النصية ومصطلحاته وبعض أصوله على أمثلة الجرجاني في باب التقديم والتأخير لكي نعطيها صبغة جديدة أكثر نظماً واتساماً بالسمات والمصطلحات الحديثة. تشير النتائج الى أن هناك مفارقات بين آراء الجرجاني وهاليداي من جملتها: ١. افتقار نظرية عبدالقاهر الى تلك المصطلحات الدقيقة والتنظيمات الموجودة في نظرية هليدي. ٢. عدم تحديد عبدالقاهر وحدته المدروسة كتحديد هليدي؛ لأن الوحدة المدروسة عند هليدي هي النص والفقرة.

الكلمات الرئيسة

البنية التقدمية- التأخرية، البنية المعلوماتية، البنية النصّية، حال المتكلم والمخاطب، عبد القاهر الجرجاني، مايكل هليدي.

---

* الكاتب المسؤول Email: rsadat1386@gmail.com

مقدمة

علم المعاني كفرع من الفروع الثلاث للبلاغة العربية قد أسّست أسسه ودوّنت أبوابه على يد النحوي الإيراني المولد والبصري المنهج عبد القاهر الجرجاني. فهو بعد التعمّق والتدبّر الوفير في النحو وأصوله أخرجها من إطار قوانينها اليابسة وأصبغها صبغة دلالية ذات أريحية ونضارة. بعبارة أخرى هو بتأسيسه علم المعاني ربط بين النحو والدلالة حتّى وصلت الدراسات النحوية إلى قمّته؛ فعلى هذا الأساس يعتبر بعض الدارسين علم المعاني قمّة الدراسات النحوية (حسّان، ١٩٧٣م: ١٨) وبعضهم الآخر يسمّونه بعلم دلالة النحو (حرّي، ١٣٨٨هـ: ١٠٣).

ولكن عندما ننظر الى هذا العلم والأصول المندرجة تحته نرى بينها وبين أصول المدارس اللغوية الحديثة خصوصاً المدرسة الهليدية الوظيفية ارتباطاً وثيقاً؛ فحيثما تتحدث هذه المدرسة ـ التي أسست أسسها في النصف الثاني من القرن العشرين ـ عن العلاقة الوطيدة بين استعمال اللغة في سياقها الحالي والمقامي يدور علم المعاني حول أحوال الكلام مطابقاً لمقتضى الحال. وحينما يندرج تحت علم المعاني مباحث كأحوال الخبر والإنشاء وأحوال المسند والمسند إليه (تقديمها وتأخيرهما وتعريفهما وتنكيرهما وحذفهما وذكرهما) والوصل والفصل؛ تتطرق المدرسة الهليدية الى كيفية ترتيب الكلمات ورصفها واتساقها معاً على ضوء البنية النصية وعواملها البنيوية (البنية التقدمية- التأخرية والبنية المعلوماتية) وغير البنيوية (الانسجام).

أما التقديم والتأخير فهو من المباحث المهمة لعلم المعاني وعبد القاهر كرائد هذا العلم قد اهتمّ به اهتماماً حيثما اختصّ به بابا من أبواب كتابه دلائل الإعجاز وتطرّق إليه في الأساليب الكلامية المختلفة كالاستفهام والنفي والخبر. فالجرجاني يتكلم في هذا الباب عن الدور الرئيس للمتكلم والسامع ـ كعنصرين أساسيين لسياق الحال ـ في تقديم وتأخير عناصر الجملة وعلى هذا يتناظر التقديم والتأخير عنده تناظراً كبيراً مع البنيتين التقدمية- التأخرية والمعلوماتية عند هليدي؛ لأن هاتين البنيتين أيضاً لهما دور كبير في تنسيق الكلمات وترتيبها وتقدمها وتأخرها بالنسبة الى العناصر السياقية كحال المتكلم وحال المخاطب.

فالمقال يقارن بين آراء كلا المنظّرين الاسلامي والأروبي ليجيب عن الأسئلة التالية:

١. ما هي مكانة علمائنا القدامى خصوصا الجرجاني في دائرة الدراسات اللغوية الوظيفية والعناية إلى عنصر السياق مقالياً وحالياً بالنسبة إلى الغربيين خصوصاً هليدي؟

٢. ما هو دور سياق الحال وعناصرها (كحال المتكلم وحال المخاطب) في كيفية ترتيب الكلمات داخل إطار الجملة وتقدّمها وتأخّرها؟

٣. ما هو التشابهات والمفارقات بين منهج الجرجاني ومنهج هليدي في التطرّق إلى البنية النصّية وتقديم وتأخير الكلمات فيها بالنسبة إلى حال المتكلم والمخاطب؟

وأما بالنسبة لخلفية بالبحث فيجدر بالذكر أننا بعد البحث الكثير في المواقع الاكترونية والقواعد المعلوماتية والمجلات والكتب المختلفة ما وجدنا شيء يتطرّق بصورة مباشرة إلى مقارنة آراء الجرجاني مع آراء مدرسة هليدي لا في قضية التقديم والتأخير ولا في قضايا أخرى.

وما حصلنا عليه من البحوث كانت تدور حول جانب واحد فقط: منها كتاب باللغة الفارسية: (به سوي زبان شناسي شعر، مهران مهاجر ومحمد نبوي؛ ١٣٧٦) (إلى علم اللغة الشعري) الذي يشرح نظرية هليدي الوظيفية بصورة مفصلة ويطبّقها على الأشعار الفارسية، ومنها مقالتان فارسيتان لـ(أبوالفضل حرّي) اللتان قد طبّقتا آراء هذه المدرسة على القرآن والنصوص الأدبية الفارسية: (كاركرد تصريف در دو سوره قرآني ناظر به داستان آفرينش در پرتو فرا كاركرد متني هليدي؛ ١٣٨٨) (وظيفية التصريف في السورتين تتحدثان عن الخلق في ضوء وظيفة ميتا النص لهليداي) و(همبستگي سطوح روايت وفراكاركردهاي هليدي در داستان حسنك وزير؛ ١٣٨٩) (تعاضد مستويات السرد ووظائف ميتا النصية في قصة حسنك وزير) ومنها رسالة في فرع علم اللغة: (بررسي كتابهاي علوم انساني (سازمان سمت) در چارچوب دستور نظام مند نقش گراي هليدي از منظر فرا نقش متني؛ مريم اعلايي: ١٣٨٨) (دراسة كتب العلوم الإنسانية (المنشورة في منظمة الدراسة والتأليف) في ضوء النحو الوظيفي من منظور وظيفة ميتا النص لهليداي) ومنها أيضا رسالة الماجيستر المعنونة بـ(دراسة في جذور آراء نحاة البصرة على ضوء المدارس اللغوية: الشكلية والوظيفية؛ ١٣٨٩) لراضية السادات سادات الحسيني التي عالجت الباحثة فيها مقارنة آراء نحاة البصرة ورائدها سيبويه مع آراء اللغويين الغربيين منهم هليدي.

هذه كلها في جانب هليدي ومدرسته ولكن حول الجرجاني وآرائه أيضا استفدت من كتابين مفيدين هما (اللغة العربية معناها ومبناها لتمام حسان: ١٩٧٣) و(عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية لأحمد أحمد بدوي: دون تا).

هناك مشابهات كثيرة بين نظرية الجرجاني النظمية ونظرية هليدي الوظيفية، لكن مع وجود هذه المشابهات لا توجد بحوث كثيرة حولها لهذا نرى التطرق إلى هذا الموضوع من الضروري برغم قلّة توفر المصادر وبرغم المفاهيم المجرّدة الانتزاعية التي تحتاج إلى التعمق والتفكر.

مدرسة هليدي الوظيفية[1]

كانت هناك في القرن العشرين نزعتان أساسيتان متقابلتان في ساحة اللسانيات النظرية إحداها النزعة الشكلية[2] وأخراها النزعة الوظيفية[3]. فعندما كانت تتجه الأولى نحو البنيات اللغوية (الجملات) ضمن العلاقات المنطقية الداخلية بينها تحدّد الثانية أبنية اللغة (النصوص) أولاً على أساس أنها علاقات داخلية تتأثر بما يكتنفها من مؤثرات خارجية ثم على أساس أنها وسيلة للتواصل.

للنزعة الوظيفية انشعابات كثيرة من أبرزها المدرسة الوظيفية الهليدية التي تعدّ استمراراً لمدرسة فيرث أو مدرسة لندن[4] حيثما طوّر هليدي فكرة السياق الفيرثية في دراساته عن الاتساق اللغوي وتحليل النصوص واقترح أسلوباً آخر لتحديد العناصر السياقية عند أستاذه فيرث كـ«شخصية المتكلم والسامع وتكوينهما الثقافي والعوائل والظواهر الاجتماعية ذات علاقة باللغة و...» (سادات الحسيني، ١٣٨٩هـ: ٢٦٥).

فعلى أساس هذا الأسلوب يعتقد هليدي بوجود ثلاث وظائف للغة في إطار سياقها الحالي هي الوظائف التصورية[5] والتعاملية[6] والنصّية[7]؛ فالوظيفة التصورية ترتبط بتجاربنا عن الحوادث الواقعة في عالمنا الخارجي والداخلي والوظيفة التعاملية تدلّ على العلاقات الاجتماعية بين مشاركي الحدث الكلامي (مهاجر ونبوي، ١٣٧٦هـ: ٢٧-٢٨) والوظيفة النصّية ترينا كيفية استخدام اللغة لإنشاء النصوص المكتوبة والمنطوقة (حرّي، ١٣٨٩هـ: ٧٤). الوظائف

1. Functional Holliday school
2. Formal
3. Functional
4. Firth(London)school
5. Ideational
6. Interpersonal
7. Textual

التي تتناظر مع المعاني المختفية الثلاثة تحت ثلاث بنيات للنصّ (والنص هو الوحدة المدروسة من جانب الوظيفيين منهم هليدي)؛ بعبارة أخرى نستطيع أن نقول حول هذه العملية الديناميكية إن السياق يحمل ثلاث وظائف ومعان ممكنة تتردّد فيه، فبإنشاء التواصل بين الطبقات الاجتماعية المختلفة يختار المعنى المراد نظراً إلى سياقه الملائم وبتبع هذا الاختيار تختار العناصر اللغوية لكي تظهر في المستويات الصرفية والنحوية والفونولوجية للنصّ؛ (مهاجر ونبوي، ١٣٧٦هـ: ٢٢) فالمعاني في المرحلة الأولى تأتي بواسطة أصوات اللغة بصورة بنية مادية مدركة؛ فتختار البنية المناسبة لهذه المعاني بين البنيات المختلفة؛ البنية التي قد روعيت فيها كلّ القواعد الصرفية والنحوية المتناسبة مع معانيها الثلاثة.

أما هذه البنيات الثلاث الخادمة للمعاني والوظائف الثلاث فسمّيت من جانب هليدي ببنية التعدي واللزوم[1] وهي خادمة للوظيفة (المعنى) التصورية والبنية الوجهية[2] وهي خادمة للوظيفة (المعنى) التعاملية والبنية النصّية وهي خادمة للوظيفة (المعنى) النصّية. ولكن يجدر بالذكر أننا لا نريد في هذا المقال التطرق إلى كلّ هذه البنيات؛ لأنه يسبب الاستطراد والملل، فالبنية المختارة من جانبنا هي البنية النصّية وعناصرها البنيوية التي تشتغل بتنظيم وتنسيق معلومات البنيتين الأخريين ولها دور بارز في تشكيل المعنى النهائي للنصّ.

البنية النصّية وعناصرها البنيوية

هناك عند اللغة آلية تربطها بسياق موقف التواصل وتعطيها صورة الرسالة؛ الآلية التي من جانب تمهّد الأرضية لعمل الوظيفتين التصورية والتعاملية ومن جانب آخر تعطي الكلام وظيفة ودوراً جديداً (مهاجر ونبوي، ١٣٧٦هـ: ٥٤).

هذه الآلية تبتني على كيفية ترتيب وتنظيم المعلومات التصورية والتعاملية في النصّ ووحدتها، الفقرة (بند[3])؛ فتقديم وتأخير عنصر في الفقرة أدّى إلى التغيير في المعنى؛ بعبارة أخرى نستطيع أن نقول إن وجود هذه المعاني المتفاوتة يرجع إلى كيفية تنظيم وتنسيق العناصر الموجودة في الفقرة؛ الكيفية التي لها دلائل سياقية تتعلق بأجوبة لمثل الأسئلة التالية:

- أي عنصر من عناصر الفقرة يعكس الموضوع الأصلي لها أو النصّ يدور حول أي عنصر؟

1. Transitivity/intransitivity structure
2. Mood structure
3. Clause

- أي قسم من الرسالة أو الفقرة يكون الأهم عند المتكلم؟
- أي قسم من أقسام الرسالة يفترضه المتكلم معلومة عند السامع؟
- أي قسم من الرسالة يختاره المتكلم كنقطة بداية للرسالة؟... (مهاجر ونبوي، ١٣٧٦هـ: ٥٦)

إجابتنا لهذه الأسئلة ترشدنا إلى اختيار هذا أو ذاك النسق الكلامي وتؤدي إلى الاعتقاد الراسخ بدور البنية النصّية الرئيس في تنسيق عناصر الكلام على ضوء السياق.

هنا يجب أن نذكر أن الاهتمام بالبنية النصّية وعناصرها البنيوية كالمتقدم[١] والمتأخر[٢] ما كان بجديد عند هليدي، فطرحت هذه القضية لأول مرة من جانب مدرسة براغ ومؤسسها «فاليم ماثيوس» تحت عنوان «النظرة الوظيفية للجملة»[٣] في أوائل العشرينيات ولكن استخدم ماثيوس هذين العنصرين بالنسبة إلى معروفية المتقدم عند المتكلم والسامع حالما يؤكد هليدي على خصيصة حولية[٤] (دربارگي) المتقدم التي تعني بأن الكلام يدور حوله (اعلايي، ١٣٨٨هـ: ٣٨) ويفتح لنظرة ماثيوس وأتباعه مجالاً آخر مرتبطاً بالبنية المعلوماتية في عناصره البنيوية (وهي البنيتين التقدمية- التأخرية والبنية المعلوماتية) وعنصره غير البنيوي (وهو الانسجام[٥]). فنحن هنا نريد أن نعالج تلك العناصر البنيوية بغضّ النظر عن العنصر غير البنيوي.

البنية التقدمية-التأخرية[٦]

تجيب هذه البنية بسؤالنا هذا: ما هو الموضوع الأصلي للفقرة عند المتكلم؟ فبالتمعّن في هذا السؤال يمكن أن يستنتج أن البنية التقدمية- التأخرية هي بنية تتمحور حول المتكلم[٧] في هذه البنية التي تتشكل من قسمين: المتقدم والمتأخر.

---

1. Theme
2. Rhyme
3. Functional sentence perspective
4. Aboutness
5. Cohesion
6. Thematic structure

هناك تسمية أخرى لهذه البنية عند اللسانيين تحت عنوان البنية الابتدائية- الخبرية (مكوناها المبتدأ والخبر) ولكننا هنا نرجح تسمية التقدمية- التأخرية لسببين: ١. عدم الالتباس بين المبتدأ والخبر النحوي والمبتدأ والخبر هنا ٢. موافقة هذه التسمية مع تسمية باب التقديم والتأخير للجرجاني.

7. Speaker-oriented

ففي هذه البنية يلعب العنصر المتقدم، الدور الأساس للرسالة وتبتدئ الجملة به؛ فلايجب لهذا العنصر البدائي أن يدور بوظيفة الفاعل(في العربية يضيف المبتدأ أيضاً إلى الفاعل) حتماً بل يمكن أن يكون هذا المكون البدائي حرفاً أو فعلاً ولكن يجدر بالإشارة إلى كون الفقرة غير معلّمة[1] عند انطباق فاعلها (ومبتدأها) مع العنصر المتقدم وكونها معلّمة[2] عند عدم انطباقهما.

أما المكوّن الآخر لهذه البنية فهو المتأخر الذي يشمل كلّ عناصر الفقرة إلّا العناصر التي تندرج تحت المتقدم وتجيء في بداية الفقرة

للتوضيح الأكثر لهذه البنية نأتي بالأمثلة التالية:

١) علي ذهب إلى البيت. (الفقرة غير المعلّمة)

1) Ali went to the house.
Theme rhyme المتأخر المتقدم

٢) هل تستطيع أن تتكلم بالإنجليزية؟ (الفقرة المعلّمة)

2) Can you speak English?
Theme rhyme المتأخر المتقدم

٣) في داخل الأرض توجد الطبقات المختلفة. (الفقرة المعلّمة)

3) Inside the earth there are different layars.
Theme rheme المتأخر المتقدم

كما نفهم من هذه الأمثلة أن القصد من المبتدأ أو المتقدم كلّ شيء يجيء في بداية الكلام، فإن يكن هذا المتقدم هو الفاعل الحقيقي للفعل تعدّ الفقرة فقرة غيرمعلمة وإن يكن غير ذلك فتعدّ هذه الفقرة معلّمة مثل فقرتين ٢ و٣.

البنية المعلوماتية[3]

الدراسات المرتبطة بهذه البنية ترجع إلى الأعمال اللغوية لعلماء مدرسة براغ ومؤسسها ماثيوس حينما اعتقد بأن كلّ جملة تتشكل من المعلومتين إحداهما المعلومة المسلّمة[4] التي تربط الجملة بسياقها اللغوي أو غير اللغوي المحدّد وأخراها المعلومة الجديدة[5] التي تعطينا خبراً جديداً؛ فماثيوس قد سمّي الأولى بالمتقدم (المبتدأ) والأخرى بالمتأخر (الخبر)؛ فالأولى في إنشاء التواصل يدور دوراً أقل ديناميكياً حالما الثانية تحمل في طياتها درجة عالية من الفعالية

1. Unmarked
2. Marked
3. Information structure
4. Given information
5. New information

في التواصل (مدرسي، ١٣٨٦هـ: ١٠). فعلى هذا ماثيوس ما فكك بين البنيتين التقدمية-التأخرية والمعلوماتية واعتبرهما معاً ولكن هليدي مع أخذه التعابير والمصطلحات عن ماثيوس أنجز تعديلاً في نظريته ﴿ماثيوس﴾ وقال بوجود التمايز بين البنيتين حيثما المتقدم والمتأخر يرتبطان بالبنية التقدمية-التأخرية والمعلومتين المسلمة والجديدة ترتبطان بالبنية المعلوماتية؛ فالبنية الأولى تتمحور حول المتكلم ـ كما قلنا ـ والثانية تتمحور حول السامع[1] وهذه نقطة افتراق بين نظرة هليدي ونظرة ماثيوس (مدرسي، ١٣٨٦هـ: ١٢).

فبعد هذه المقدمة نستطيع أن نعرّف مكونتي البنية المعلوماتية بالنسبة إلى الرؤية الهليدية: المعلومة المسلّمة: هي ما يقدّمه المتكلم من معلومات يدركها السامع أو المخاطب من مصدرما في المحيط (أي المقام أو النصّ السابق) والمعلومة الجديدة: هي ما يقدّمه المتكلم من معلومات لايدركها السامع من مصادر أخرى فتكون هذه المعلومة جديدة إضافة لدى المخاطب.

يجدر بالذكر أن الإتيان بنعتي (الجديدة والمسلّمة) للمعلومة يوضّح لنا أن البنية المعلوماتية على خلاف البنية التقدمية-التأخرية تنظر إلى الرسالة بمنظار السامع أو المخاطب ـ كما أشرنا سابقاً ـ لا المتكلم؛ لأن المخاطب هو الذي يقرّر أياً من المعلومات ينبغي أن تعدّ من المسلّمات وأياً منها ينبغي أن تعدّ جديداً. فبما أن المعلومة المسلّمة هي التي تظهر أولاً في الفقرة وتجيء المعلومة الجديدة بعدها، فعادة تقع المعلومة المسلّمة موقع المتقدم والمعلومة الجديدة موقع المتأخر.

المتقدم/ المعلومة المسلّمة المتأخر/ المعلومة الجديدة

فيحدث هذا الانطباق في الفقرات غير المعلّمة حالما لا يوجد هذا الانطباق في الفقرات المعلّمة. إذا نريد أن نوضّح هذه الانطباقات ونقارن بين كلتا الفقرتين في البنية المعلوماتية نأتي ببعض الأمثلة: (مهاجر ونبوي، ١٣٧٦هـ: ٦١-٦٢)

– إذ إن عملية توزيع المعلومة المسلّمة والمعلومة الجديدة في الفقرة (في الإنجليزية) تكون على أساس «التنغيم»[2] (ناظراً بأن النغمة الصاعدة تستقرّ على المعلومة الجديدة) فإن تقع النغمة الصاعدة على المتقدم يتسم بسمة المعلومة الجديدة على خلاف الأصل. (علامة ´ تدلّ على النغمة).

1. Addressee-oriented
2. Intonation

١) علي ´جلس على الكرسي

1) Ali	´Sat on the chair
theme	rhyme
given information	new information

المتقدم المتأخر

المعلومة المسلمة المعلومة الجديدة

النغمة الهابطة النغمة الصاعدة (تكون هذه الفقرة فقرة غير معلّمة)

٢) ´علي جلس على الكرسي

2) ´Ali	Sat on the chair
theme	rheme
new information	given information

المتقدم المتأخر

المعلومة الجديدة المعلومة المسلمة

النغمة الصاعدة النغمة الهابطة (تكون هذه الفقرة فقرة معلّمة)

– توجد هناك عملية أخرى تسبب عدم المطابقة بين المتقدم والمعلومة المسلمة وبين المتأخر والمعلومة الجديدة وبتبعها تسبّب اتّسام الفقرة بسمة المعلّمة. فهذه العملية تسمّي بالموضعية[1] أو الموضوعية. فالموضعية هي «عملية تضع إحدى المكوّنات غيرالفاعلية للفقرة موضع المتقدم» (مهاجر ونبوي، ١٣٧٦هـ: ٦٢).

فالمثال على تلك بالعربية: وبالإنجليزية:

– إيّاك نعبد. - John I saw.

– الله أدعو. - John I saw him.

– زيد ضربته. - Yesterday I saw him.

عبد القاهر الجرجاني كمنظّر

هذا الأديب واللغوي البارع كما يظهر من اسمه قد ولد في مدينة جرجان ـ وهي مدينة إيرانية ـ وقام فيها وما برحها حتّى نهاية عمره؛ فنشأ ولوعاً بالعلم محبّاً للثقافة فأقبل على الكتب يلتهمها وبخاصة كتب النحو والأدب وربّما كان اتجاهه إلى هذين اللونين ناشئاً من اقتفائه أثر أستاذيه: أبي الحسين الفارسي النحوي نزيل الجرجان وأبي الحسن علي بن عبدالعزيز الجرجاني. فتتلمّذ عبدالقاهر بعد تتلمذه على هذين الأستاذين، على الكتب قرأها بفكر واع ووقف متريثاً أمام نصوصها شأن الطالب الذي يعتمد على نفسه في القراءة والتحصيل وقد

1. Topicalization

رأيناه في كتبه نقل عن سيبويه والجاحظ وأبي علي الفارسي وابن قتيبة وقدامة بن جعفر والآمدي والقاضي الجرجاني وأبي هلال العسكري وغيرهم من العلماء المشهورين (أحمد بدوي، دون تا: ٥). ظلّ هذا الرجل في مدينته حتّى توفّي فيها سنة ٤٧١ أو ٤٧٤ من الهجرة؛ فيمكن أن يرجع هذا الأمر إلى أنّه مقتّر عليه في الرزق على الرغم من علمه الغزير وإنتاجه القيّم، فعلى هذا هو تصدّر بجرجان فذاع صيته في الآفاق وشدّت إليه الرحال وقصده طلاب العلم من جميع الأرجاء يقرؤون عليه كتبه ويأخذونها عنه (القفطي، ١٩٥٢م: ج٢، ١٨٨).

ففي عصر عبدالقاهر وجدت طائفة من الناس تحقّر من الشعر وتزري به ولاتراه شيئاً ذا قيمة كما تكتفي من أمر النحو بالأمور الظاهرة من ضبط أواخر الكلمات من غير نظر إلى الأسرار التي تستفاد من صلة الكلمات بعضها ببعض. فتألّم عبدالقاهر من جهل هذه الطائفة بالنحو لا لأنهم ينكرون قيمة قواعد النحو أو لايرون الحاجة ماسّة إلى معرفة هذه القواعد أو يبيحون الخطأ في التعبير ولكنه يتألّم من وقوفهم عند ظواهر الأشياء دون معرفة أسرارها (أحمد بدوي، دون تا: ٢٤).

فخلّف عبدالقاهر آثاراً كثيرة ولكن المؤلّفين الذين سببّا اشتهاره، كتابا (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) الكتابان اللذان يتمحوران حول محور القرآن ودلائل إعجازه. فعندما يتطرق الكتاب الثاني إلى أهمّ أبواب البلاغة من تشبيه واستعارة ومجاز ويقدّم مسائل علم الجمال يعقّد الكتاب الثاني علمي النحو والبلاغه معاً وبسبب هذا التعقيد يتشكل أهمّ النظرية العلمية لعبد القاهر وهي نظرية النظم؛ النظرية التي تؤدّي إلى إنشاء العلاقات الوثيقة بين علم النحو وعلم المعاني في البلاغة وبين علم النحو وعلم الدلالة وبين اللفظ والمعنى وبين... فهذه النظرية المولّدة تدلّ على عقلية ناضجة عند عبد القاهر كانت قد تربّت تحت لواء القرآن الكريم والعناية به أولاً وإلمامه بآراء العلماء السابقين خصوصاً سيبويه ـ رائد المدرسة البصرية ـ ثانياً. فعبد القاهر في منهجه النحوي كان يتبع كثيراً ما آراء المدرسة البصرية ونحويها الشهير سيبويه وهذا الأمر مشهود في آثاره خصوصاً دلائل الإعجاز عند نقله آراء هذا العبقري الكبير (فيما نقله عبد القاهر عن سيبويه ينظر إلى دلائل الإعجاز ٧، ١٣١، ١٤٥ ونحوها كثير).

نحن أشرنا إلى هذا الأمر لكي نجيب إلى مسألة مطروحة من جانب الدارسين يستشمّ منها عدم كون عبد القاهر المؤسس الحقيقي لعلم المعاني ونظرية النظم؛ فيقول أحدهم «فإذا كان عبدالقاهر هو الذي ينسب إليه ابتكار النظم، لأنّه بسطها وفصّلها وطبّقها على

أبواب جمّة من البلاغة، فإن سيبويه هو الذي أمسك المصباح بكلتا يديه وأنار الطريق أمام عبدالقاهر» (نقلاً عن حسن أحمد، ١٩٩٦م: ٣٠١).

أما رأينا بالنسبة إلى هذه المسألة: نحن أيضاً نعتقد بهذه المسألة إلى حد ما وهذا بسبب وجود صور بدائية لعلم المعاني ولنظرية النظم في (الكتاب)؛ فسيبويه لم تكن عنايته في كتابه مقصورة على الحركات الإعرابية والعناصر اللفظية والشكلية فقط بل هو كان شديد العناية بالعناصر الوظيفية والسياقية (سادات الحسيني، ١٣٨٩هـ: ٢٠٩)؛ ولكن يجب أن نذكر أن هذه الصور كانت متفرقة ومتشتتة في ثنايا (الكتاب) ما استحق اندراجها تحت نظرية علمية فوجب أن يقوم شخص ما لكي ينظم هذه المتفرقات ويبوبها وما كان هذا الشخص إلا عبد القاهر الذي انتهج بنهج سيبويه ورأى الطريق أمامه مضيئة تحت إنارته فهو اهتم بتنظيم تلك الصور البدائية وتبويبها وتفصيلها وإضافة الصور الأخرى إليها حتّى وصلت إلى حد نظرية لغوية مكتملة كانت تربط بين علم المعاني وعلم النحو أشدّ ربطاً لايمكن انفصالهما.

فعلى هذا ومع قبولنا الدور المهم لسيبويه في إنشاء الأسس الأولى لنظرية النظم يجب أن لا نغمض عيوننا أمام جهود عبد القاهر في إكمال ذلك البناء الناقص وتحكيمه وتزيينه ونعدّه في جانب الواضع الأول، الواضع المكمل والأساسي لنظرية النظم. فيمكن أن نقول إن علمية هذه الجهود المضنية والمنسقة أشد تنسيقاً واستحكامها من جانب وتسمية عبد القاهر نفسه إياها تحت مصطلح «النظم» في كتابه أدّت إلى الباحث بحسبان هذا العالم العبقري هو واضع علم المعاني ونظرية النظم، فنحن أيضاً على نهج هؤلاء نعتبره واضع هذه النظرية ونريد الآن أن نعرّفها بصورة موجزة على لسان صاحبها. فيقول عبد القاهر الجرجاني: «واعلم أن ليس النظم إلاّ أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلاتزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلاتخلّ بشيء منها وذلك أنّا لانعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كلّ باب وفروقه» (الجرجاني، ١٩٨٤م: ٨١).

فالنظم يقوم على مراعاة قوانين النحو العربي وأحكامه: «هذا هو السبيل فلستُ بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم ويدخل تحت هذا الاسم إلّا وهو معني من معاني النحو قد أصيب به موضعه ووُضع في حقّه أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلاماً وصف بصحة نظم

أو فساده أو وصف بمزية وفضل فيه إلاّ وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه» (الجرجاني، ١٩٨٤م: ٨٢).

ويمضي عبدالقاهر في شرح نظرية النظم بقوله: «وإذا ثبت أنّ سبب فساد النظم واختلاله أن لا يعمل بقوانين هذا الشأن، ثبت أنّ سبب صحته أن يعمل بها، ثم إذا ثبت أنّ مستنبط صحته وفساده من هذا العلم، ثبت أنّ الحكم كذلك في مزيته والفضيلة التي تعرض فيه وإذا ثبت جميع ذلك، ثبت أن ليس هو شيئاً غير توخّي معاني هذا العلم وأحكامه فيما بين الكلم» (الجرجاني، ١٩٨٤م: ٨٤).

فعبدالقاهر الجرجاني يريد أن يبحث في العلاقات التي أقامتها اللغة بين الكلمات، مراعياً في ذلك النظم وتوخي معاني النحو فيه ومعاني النحو لاتظهر في إعراب الكلمات أو صيغها بل تظهر باتحاد أجزاء الكلام وارتباط بعضه في بعض.

أمّا فما هو مفهوم (معاني النحو) الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بنظرية النظم؟ فمعاني النحو ليست إلاّ العلاقات السياقية الموجودة في الكلام وخارج الكلام؛ العلاقات التي أنشئت بوساطة ما دعاه تمام حسان بالقرائن اللفظية والمعنوية والحالية وشكّلت عنده فكرة قد سمّيت بفكرة التعليق (حسّان، ١٩٧٣م: ١٨٩). فالقرائن اللفظية والقرائن المعنوية في هذه الفكرة تكون من عناصر السياق اللغوي (المقال) والقرائن الحالية تكون من عناصر السياق غير اللغوي (المقام). فعلى رأي حسّان ـ الذي قد اقتبس أصول فكرته من نظرية عبدالقاهر النظمية وعبدالقاهر أيضاً قد اقتبس أصول نظريته من سيبويه ـ الوصول إلى المعنى النحوي ليس إلاّ نتيجة لتضافر هذه القرائن جميعاً (نفسه). فتلك القرائن المعنوية التي أشار إليها حسّان في فكرته هي قرائن (الإسناد) و(التخصيص) و(النسبة) و(التبعية) وتلك القرائن اللفظية هي قرائن (العلامة الإعرابية) و(الترتيب) و(المطابقة) و(الربط) و(التضام) و(الأداة) و(التنغيم) (حسّان، ١٩٧٣م: ٢٠٥). فعلى هذا الرأي، توجد بين هذه القرائن علاقات وثيقة ويستنبط المعنى النهائي للنص مع الاهتمام بكلها ولكننا هنا من بين هذه القرائن فقط نريد أن نتطرّق إلى قرينة الترتيب من القرائن اللفظية على ضوء القرائن الحالية كحال المتكلم وحال المخاطب لأن للقرائن الحالية (سياق الحال) دور بارز في ترتيب الكلام وتقديم وتأخير عناصره.

التقديم والتأخير (الترتيب) عند الجرجاني والبنية النصّية الهليدية

ظاهرة التقديم والتأخير من الظواهر المهمة التي حظيت باهتمام علماء البلاغة ورائدهم عبدالقاهر حيثما يعتقد بأن هذه الظاهرة من الجوانب المهمة في تعليق الكلم فتبدأ من المعاني النحوية في نفس المتكلم وتنتهي إلى الألفاظ والكلمات. بعبارة أخرى يقتفي المتكلم في نظم الكلم آثار المعاني وترتّبها على حسب ترتّب المعاني في النفس فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض (الجرجاني، ١٩٨٤م: ٤٩). وينطوي على قصد معين إذ يتجاوز المتكلم مجرد الضم الذي يقتضيه النحو والدلالة إلى الضم على طريقة مخصوصة وفق ما يستدعيه سياق الخطاب (ابن ظافر الشهري، ٢٠٠٤م: ١٤١).

أما أول من أشار إلى هذه الظاهرة وسببها فهو سيبويه الذي يعتقد بأنّ تقديم المفعول قد جاء لغرض بلاغي وهو العناية والاهتمام به (إسماعيل نعيم، ١٩٩٩م: ١٣٠). هو يقول في كتابه: «فإن قدّمت المفعول وأخّرت الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأول وذلك قولك: (ضرب زيداً عبدُالله) لأنّك إنّما أردت به مؤخراً ما أردت به مقدماً ولم ترد أن تشغل الفعل بأوّل منه وإن كان مؤخراً في اللفظ. فمن ثمّ كان حدّ اللفظ أن يكون فيه مقدّماً وهو عربيّ جيد كثير كأنّهم إنّما يقدّمون الذي بيانه أهمّ لهم وهم ببيانه أعني وإن كانا جميعاً يهمّانهم ويعنيانهم» (سيبويه، ١٩٩٠م: ج١، ٢٤). فسيبويه في أمكنة أخرى لكتابه أيضاً يشير إلى هذه الظاهرة مثل تقديم المسؤول عنه في الكلام (سيبويه، ١٩٩٠م: ج١، ٥٦٩) وتقديم المفعول به على الفعل والفاعل معاً (سيبويه، ١٩٩٠م: ج١، ٤٥١) و...

أما عبد القاهر كمقتفي أثر سيبويه فباختصاصه باباً واسعاً لآلية التقديم والتأخير يعتني بها اعتناء كبيراً حينما يتطرق إليها تحت إطار الأساليب المختلفة كالاستفهام والنفي والخبر. فهو في بداية باب التقديم والتأخير وبعد ذكر أهميته يقسّم التقديم إلى نوعين (الجرجاني، ١٩٨٤م: ١٠٦-١٠٧): النوع الأول هو تقديم على نية التأخير حيثما لا يختلف الحكم الإعرابي للكلمة بمجرد نقله عن موضعه الأصلي مثل تقديم خبر المبتدأ على المبتدأ وتقديم المفعول على الفاعل، فهنا الخبر والمفعول لا يخرجان بالتقديم عما يكونان عليه والنوع الثاني هو تقديم لا على نية التأخير حيثما ينقل الشيء عن حكم إلى حكم ومن إعراب إلى إعراب آخر مثل وجود اسمين معرفتين في الجملة يحتمل كل منهما أن يكون مبتدأ أو خبراً مثل: زيد المنطلق والمنطلق زيد. فهو بعد ذلك يشير إلى آراء القدماء خصوصاً سيبويه لعلل التقديم

من أهمها هو العناية والاهتمام (قد ذكرت سابقاً) وينقدها حينما يقول: «وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال إنه قدّم للعناية ولأن ذكره أهم، من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية وبم كان أهم؟ ولتخيلهم ذلك قد صغر أمر التقديم والتأخير في نفوسهم وهوّنوا الخطب فيه» (الجرجاني، ١٩٨٤م: ١٠٨). فعلى هذا القول عبد القاهر يعتقد بأن مجرد الإشارة إلى العناية والأهمية كسبب للتقديم لا تكفي بل يجب أن توضّح جوانبها وتدقق في أطرافها وتضاف إليها دلائل أخرى. فهو لهذا يأتي بضروب مختلفة وفي أساليب متنوعة لكي يثبت أن المتكلم/الكاتب لأغراض متفاوتة من إحداها الاهتمام يقدّم الكلمات.

هذه مقدمة موجزة لقضية التقديم والتأخير ولكن هنا يجب أن نشير إلى العلاقة الوثيقة بين هذه القضية والبنية النصّية عند هليدي التي تعتني بكيفية تنظيم الكلمات وترتيبها في الفقرة بصور شتى وتحت البنيتين التقدمية والتأخرية والمعلوماتية. فعلى أساس هذه العلاقة نريد أن نحلل بعض الأمثلة المذكورة في باب التقديم والتأخير لكتاب دلائل الإعجاز ـ وهي مندرجة تحت أساليب الاستفهام والنفي والخبر ـ على ضوء البنيتين التقدمية- التأخرية والمعلوماتية.

الأسلوب الاستفهامي بأنواعه

أ) الاستفهام الحقيقي (أسباب التقديم: تردد المتكلم إما في الفعل إما في فاعله)

يقول عبد القاهر: «إذا قلت: أفعلت؟ فبدأت بالفعل كان الشك في الفعل نفسه وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده وإذا قلت: أأنت فعلت؟ فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل من هو وكان التردد فيه» (الجرجاني، ١٩٨٤م: ١١١).

عندما ندقق في هذا القول نستطيع أن نستنبط أن المتقدم في كلتا الجملتين (الفقرتين) قد قدّمت بسبب تردد المتكلم والسامع هنا لا يلعب دوراً بارزاً في ترتيب الكلمات؛ بعبارة أخرى لا يريد المتكلم إخبار المخاطب وإضافته معلومة جديدة بل يريد أن يستفهمه لهذا هنا لا يوجد عندنا البنية المعلوماتية فعلى هذا إذا نريد أن نحلل قول الجرجاني ونبسطه (أي نضيف التحليل إلى تحليله) على ضوء البنية التقدمية-التأخرية نعمل كما يلي:

١) أفعلت؟ ⟸ المتقدم: فعلت، المتأخر: ضمير ت البارز، الفقرة: معلّمة بسبب عدم انطباق الفاعل على العنصر المتقدم

٢) أأنت فعلت؟ ⟸ المتقدم: أنت، المتأخر: فعلت، الفقرة: غير معلّمة بسبب انطباق الفاعل (المبتدأ) على العنصر المتقدم

ب) الاستفهام التقريري (أسباب التقديم: لتقرير الفاعل أو فعل الفاعل للمتكلم)

فيقول عبد القاهر حول هذه الآية القرآنية ﴿**أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ**﴾ «لا شبهة في أنهم {نمرود وأتباعه} لم يقولوا ذلك له عليه السلام وهم يريدون أن يقرّ لهم بأن كسر الاصنام قد كان ولكن أن يقرّ بأنه منه كان وكيف؟ وقد أشاروا له إلى الفعل في قولهم ﴿**أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا**﴾ وقال هو عليه السلام في الجواب: ﴿**بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا**﴾ ولو كان التقرير بالفعل لكان الجواب (فعلت أو لم أفعل)» (الجرجاني، ١٩٨٤م: ١١٣).

في هذا المثال القرآني أيضاً نحن نشاهد دور المتكلم البارز في تقديم وتأخير الكلمات والمتكلم لا يريد أن يضيف معلومة إلى السامع لكي يكون له (السامع) دور في ترتيب الكلام.

أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟ ⟸ المتقدم: أنت، المتأخر: فعلت...، الفقرة: غير معلّمة بسبب انطباق الفاعل على المتقدم

أفعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟⟸ المتقدم: فعلت، المتأخر: ضمير ت البارز، الفقرة: معلّمة بسبب عدم انطباق الفاعل على المتقدم

يمكن أن يطرح سؤال هنا: كيف نميز بين هذين المثالين والمثالين السابقين وفي كلاهما (أأنت فعلت؟) و(أفعلت؟)؟ نحن نجيب باستعانة من السياق مقامياً (الظروف والقرائن الحالية) أو مقالياً (الكلام السابق) يحصل هذا التمييز؛ وهنا يتضح الدور الرئيس لعنصر السياق في فهم معني النصّ؛ العنصر الذي عند الجرجاني وهليدي كلاهما ذو أهمية بالغة.

ج) الاستفهام الإنكاري (أسباب التقديم: لإنكار المتكلم الفاعل أو فعل الفاعل)

فهو يأتي بهذا القول: «ولها {الهمزة} مذهب آخر وهو أن يكون الإنكار أن يكون الفعل قد كان من أصله ومثاله قوله تعالى ﴿**أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً**﴾ وقوله عزّ وجلّ ﴿**أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**﴾ فهذا رد على المشركين وتكذيب لهم في قولهم ما يؤدي إلى هذا الجهل العظيم وإذا قدّم الاسم في هذا صار الإنكار في الفاعل ومثاله قولك للرجل قد انتحل شعراً: (أأنت قلت هذا الشعر؟ كذبت، لست ممن يحسن مثله) أنكرت أن يكون القائل ولم تنكر الشعر» (الجرجاني، ١٩٨٤م: ١١٤).

أفأصفاكم ربكم بالبنين... ⟸ المتقدم: أصفاكم، المتأخر: ربكم، الفقرة: معلّمة

أأنت قلت هذا الشعر؟..⟸ المتقدم: أنت، المتأخر: قلت...، الفقرة: غير معلّمة

كما شاهدتم في كلّ هذه الأمثلة (وسنشاهد أيضاً في الأمثلة التالية) ما اكتفى عبد القاهر بكون(العناية) بوحدها دليل التقديم من جانب المتكلم بل هو بسط وشرح هذا الدليل باستعانة من أدلة (الشك والتقرير والإنكار) وبهذا البسط والتفصيل سبق عن سابقيه وحتّى سبق عن المدرسة الهليدية إذ هذه المدرسة أيضاً ما فصّلت وما شرحت دلائل التقديم كعبدالقاهر وقالت بأن المتقدم هو نقطة عطف الرسالة فحسب ولا يجب بأن يكون عبارة اسمية بل المتكلم في اختيار العنصر المتقدم يكون حرّاً مرّة يختار عبارة فعلية مرّة عبارة اسمية وحتّى الأداة ـ بشروط ـ يمكن أن تقدّم من جانبه (اعلايي، ١٣٨٨هـ: ٣٨).

أسلوب النفي

(أسباب التقديم: نفي المتكلم أصل الفعل أو نفيه أصل الفاعل)

أما حول التقديم والتأخير في النفي فعبد القاهر يقول: «إذا قلت: (ما فعلت) كنت نفيت عنك فعلاً لم يثبت أنه مفعول وإذا قلت (ما أنا فعلت) كنت نفيت عنك فعلاً يثبت أنه مفعول... وإذا قلت (ما أنا قلت هذا) كنت نفيت أن تكون القائل له وكانت المناظرة في شيء ثبت أنه مقول وكذلك إذا قلت: (ما ضربت زيداً) كنت نفيت عنك ضربه ولم يجب أن يكون قد ضرب بل يجوز أن يكون ضربه غيرك وأن لا يكون قد ضرب أصلاً وإذا قلت: (ما أنا ضربت زيداً) لم تقله إلا وزيد مضروب وكان القصد أن تنفي أن تكون أنت الضارب» (الجرجاني، ١٩٨٤م: ١٢٤).

هنا بسبب أن المتكلم يريد أن يخبر المخاطب بخبر ويعطيه معلومة جديدة فلكليهما دور بارز في تقديم الكلمات وتأخيرها ولهذا نحلل الأمثلة المطروحة في كلام الجرجاني على ضوء البنيتين التقدمية- التأخرية والمعلوماتية كما يلي:

ما ضربت زيداً ⟸ المتقدم: ما ضربت، المتأخر: ضمير ت البارز، الفقرة: معلّمة ⇦ هذا بالنسبة إلى البنية التقدمية- التأخرية

المعلومة الجديدة: ما ضربت (إعلامك السامع نفي الضرب كلاً)، الفقرة: معلّمة بسبب انطباق المعلومة الجديدة على العنصر المتقدم ⇦ هذا بالنسبة إلى البنية المعلوماتية

ما أنا ضربت زيداً ⟸ المتقدم: ما أنا، المتأخر: ضربت، الفقرة: غير معلّمة ⇦ بالنسبة إلى البنية التقدمية- التأخرية

المعلومة المسلمة: ضربت، المعلومة الجديدة: ما أنا (إعلامك السامع نفي كونك ضارباً)، الفقرة: معلّمة بسبب انطباق المعلومة الجديدة على العنصر المتقدم ⟸هذا بالنسبة إلى البنية المعلوماتية

أسلوب الخبر

(أسباب التقديم: قصر الفعل على الفاعل، التأكيد على حدوث الفعل من جانب الفاعل وإزالة الشك عن السامع، تنبيه السامع للفاعل و... [يجدر بالذكر في بعض الأحيان تجيء هذه الأسباب معاً لا يمكن الانفصال بينها من جملتها مجيء السببين الثاني والثالث المذكورين هنا معاً])

عبد القاهر يقول: «إذا عمدت إلى الذي أردت أن تحدّث عنه بفعل فقدّمت ذكره ثم بنيت الفعل عليه فقلت: (زيد قد فعل) و(أنا فعلت) و(أنت فعلت) اقتضى ذلك أن يكون القصد إلى الفاعل» (الجرجاني، ١٩٨٤م: ١٢٨). فهو بعد ذلك يقسّم هذا القصد إلى القسمين: القسم الأول جليّ وهو نصّ الفعل على الفاعل وجعله له حيثما يدّعي المتكلم انفراد الفاعل بالفعل واستبداده به مثل«أنا كتبت في معني فلان وأنا شفعت في بابه» (الجرجاني، ١٩٨٤م: ١٢٨). ففي هذا المثال عمل الكتابة يختصّ بـ«أنا» دون الغير يعني هنا يختفي معنى الحصر والقصر.

والقسم الثاني عنده ضروب مختلفة تختفي فيها أغراض متنوعة كالتأكيد والتنبيه وإزالة الشك و...

عبد القاهر يقول في هذا القسم: «لا يكون القصد إلى الفاعل على هذا المعنى ﴿معنى الحصر﴾ ولكن على أنك أردت أن تحقق على السامع أنه ﴿الفاعل﴾ قد فعل وتمنعه من الشك فأنت لذلك تبدأ بذكره وتوقعه أولاً ومن قبل أن تذكر الفعل في نفسه لكي تباعده بذلك من الشبهة وتمنعه من الإنكار... ومثاله قولك (هو يعطي الجزيل) و(هو يحب الثناء)، لا تريد أن تزعم أنه ليس هنا من يعطي الجزيل ويحب الثناء غيره ولا أن تعرّض بإنسان وتحطّه عنه... لكنك تريد أن تحقق على السامع أن إعطاء الجزيل وحب الثناء دأبه وأن تمكن ذلك في نفسه» (الجرجاني، ١٩٨٤م: ١٢٨-١٢٩).

هو في مكان آخر حول غرض تنبيه السامع للمحدّث عنه (المبتدأ أو الفاعل) يقول: «وهذا الذي قد ذكرت من أن تقديم ذكر المحدث عنه يفيد التنبيه له، قد ذكره صاحب الكتاب في المفعول إذا قدّم فرفع بالابتداء وبني الفعل الناصب كان له عليه وعدّي إلى ضميره فشغل به كقولنا في (ضربت عبدالله): (عبدالله ضربته)، فقال: وإنما قلت (عبدالله) فنبّهته له ثم بنيت عليه الفعل ورفعته بالابتداء» (الجرجاني، ١٩٨٤م: ١٣١). فعبد القاهر في شرح هذا التنبيه

يقول: «فإن ذلك من أجل أنه لا يؤتي بالاسم معرّي من العوامل إلا لحديث قد نوي إسناده إليه وإذا كان كذلك، فإذا قلت (عبدالله) فقد أشعرت قلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنه فإذا جئت بالحديث فقلت مثلاً (قام) أو قلت (خرج) أو قلت (قدم)فقد علم ما جئت به وقد وطّأت له وقدّمت الإعلام فيه فدخل على القلب دخول المأنوس به وقبله قبول المهيأ له المطمئن إليه وذلك لا محالة أشد لثبوته وأنفى للشبهة وأمنع للشك» (الجرجاني، ١٩٨٤م: ١٣٢).

بمجرد رؤيتنا جملة (عبدالله ضربته) نتذكر قضية مهمة في النحو العربي المسمّى بقضية الاشتغال التي يتقدم فيها اسم ويتأخر عنه فعل متصرف أو ما جرى مجراه قد عمل في ضمير ذلك الاسم وفي سببه ولو لم يعمل فيه لعمل في الاسم المشتغل عنه؛ فعلى هذا جملة (ضربت عبد الله) تجيء بصورتين: (عبدالله ضربته) و(عبدالله ضربت).

أما هذه العملية في علم اللغة الحديث فقد سمّيت بالموضعية أو إنتاج المتقدم (المبتدأ) التي أتينا بتعريف مختصر لها آنفاً ولكن إذا أردنا أن نعرّفها تعريفاً أوضح نقول إن إنتاج المتقدم هو تحويل الركن الاسمي من موضعه إلى موضع المتقدم وهذا التحويل يتناول الركن الاسمي الذي يقع على يسار الفعل فينقله إلى موضع المتقدم فقد يترك ضميراً عائداً إليه في الموضع الذي كان يشغله الركن الاسمي وقد لا يترك الضمير، فمتى حلّ الضمير في مكان الركن الاسمي المقدّم تسمّي هذه العملية عملية إنتاج المتقدم (المبتدأ) مع الضمير (فرايند مبتدأ سازي ضمير گذار) وإلا فيعبّر عنها باسم عملية إنتاج المتقدم (المبتدأ) دون الضمير (فرايند مبتدا سازي ضمير ناگذار) (نبي فر، ١٣٨٣هـ: ٨٢-٨٣).

فعلى هذا عبدالله ضربته ⟸ إنتاج المتقدم(المبتدأ) مع الضمير (عبدالله را زدمش)
عبدالله ضربت ⟸ إنتاج المتقدم (المبتدأ) دون الضمير (عبدالله رازدم)

هذه المتقدمات على رأي اللغويين تمهد الأرضية للعناصر المتأخرة عنها (مدرسي، ١٣٨٦هـ: ١٣)؛ الرأي الذي يشابه تقريباً برأي الجرجاني الذي يعتقد في هذه الصور بتنبيه السامع والتوطئة له لإعلامه خبراً ما مع هذا الفرق أن عبد القاهر ما أشار إلى الصورة الثانية (عبدالله ضربت).

أما الآن فحان وقت تحليل الأمثلة المذكورة هنا:

أنا كتبت في معني فلان ⇦ المتقدم: أنا، المتأخر: كتبت، الفقرة: غيرمعلّمة بسبب انطباق المبتدأ على المتقدم ⇦ بالنسبة إلى البنية التقدمية- التأخرية

المعلومة المسلّمة: كتبت، المعلومة الجديدة: أنا، الفقرة: معلّمة بسبب انطباق المبتدأ على المعلومة الجديدة ⇦ بالنسبة إلى البنية المعلوماتية

هو يعطي الجزيل ⇦ المتقدم: هو، المتأخر: يعطي، الفقرة: غير معلّمة ⇦ بالنسبة إلى البنية التقدمية- التأخرية

المعلومة المسلّمة: يعطي، المعلومة الجديدة: هو، الفقرة: معلّمة ⇦بالنسبة إلى البنية المعلوماتية

عبدالله ضربته⇦المتقدم: عبدالله، المتأخر: ضربته، الفقرة: غير معلّمة ⇦ بالنسبة إلى البنية التقدمية- التأخرية

المعلومة المسلّمة: ضربته، المعلومة الجديدة: عبدالله، الفقرة: معلّمة ⇦ بالنسبة إلى البنية المعلوماتية

المثالان الثاني والثالث هنا يحتاجان إلى الدقة والتعمق الأكثر، لأن المخاطب يعرف (عبدالله) ويعرف (هو) في الحقيقة (المعلومة المسلمة) والمتكلم بإخباره (السامع) إعطاء (هو) وضربه (عبدالله) يريد أن يضيف إليه معلومة جديدة. ولكن الأصح أن نقول: هذا صحيح أن المخاطب يعرف عبدالله وهو ولكن المتكلم بتقديمه إياهما والتأكيد عليهما للتنبيه وإزالة الشك كأنه يريد أن يعطي المخاطب خبراً جديداً يحمل في ثناياه معلومة جديدة.

أما فنكتفي بهذه الأمثلة المذكورة في كتاب الجرجاني ونترك الأمثلة الأخرى التي ليست بقليلة ولكن بسبب ضيق المجال وبسبب الاجتناب عن التكرار والإطالة نصرف عنها.

النتائج

عبد القاهر الجرجاني هذا النحوي البلاغي الشهير الذي كمّل الدراسات النحوية لسابقيه ووضع الأسس الأولي لعلم المعاني كثيراً ما ترتبط آراؤه ارتباطاً وثيقاً مع آراء اللغويين الغربيين خصوصاً المدارس الوظيفية وخصوصاً المدرسة الوظيفية الهليدية؛ فهذه المدرسة الغربية تعتني عناية خاصة بعنصر السياق خصوصاً سياق الحال[1] كما عبدالقاهر يهتم بهذا العنصر في دراساته وتحليلاته. فعلى رأي كلا المنظّرين نحن إضافة على الاهتمام بعناصر لغوية محضة يجب أن نمعن النظر بعناصر خارجة عن اللغة مثل الظروف المحيطة للنص وحال المتكلم وحال المخاطب. فهذه العناصر لغوية وغير لغوية لها دور بارز في تشكيل معني النصّ وبعناية إلى كليهما نستطيع أن نحلل النصّ تحليلاً دقيقاً ونستنبط المعاني منه.

1. Context of situation

أما من إحدى الجوانب المهمة عند عبد القاهر وهليدي التي تربط بين عنصري الصورة والمعنى (بعبارة أخرى السياق اللغوي وغير اللغوي) قضية تقديم وتأخير الكلمات في داخل البنية وكيفية ترتيب عناصر البنية جنباً إلى جنب بالنسبة إلى حال المتكلم وحال المخاطب. فعندما نتورق كتاب عبدالقاهر ونقرأ خصوصاً باب التقديم والتأخير لهذا الكتاب كثيراً ما نشاهد العناية بالمتكلم والمخاطب وعندما نطالع نظرية هليدي نرى أنه يعتقد في بنيته النصّية ومكونتيها بأن البنية التقدمية- التأخرية تتمحور حول المتكلم حالما البنية المعلوماتية تتمحور حول المخاطب. على رأي عبد القاهر، المتقدم هو العنصر المتأكد عليه في الجملة وعلى رأي هليدي، المتقدم هو نقطة عطف الرسالة. ولكن يجدر بالذكر أن بين كلا اللغويين بعض الافتراقات من جملتها:

١. افتقار نظرية عبدالقاهر إلى تلك المصطلحات الدقيقة والتنظيمات الموجودة في نظرية هليدي.

٢. عدم إشارة عبدالقاهر إلى دور التنغيم في معرفة البنية المعلوماتية ومكونتيها (المعلومة المسلمة والمعلومة الجديدة) حيثما هليدي يعتقد بأن المعلومة الجديدة ذات نغمة صاعدة.

٣. عدم تحديد عبدالقاهر وحدته المدروسة كتحديد هليدي؛ لأن الوحدة المدروسة عند هليدي هي النصّ والفقرة.

ولكن هذه الافتراقات يمكن الإغماض عليها بالنسبة إلى العصر الذي كان يعيش فيه عبد القاهر العصر الذي ما كان قد اتسم بوضع المصطلحات العلمية الدقيقة والأصول المنظمة المدونة؛ فالعلماء من جملتهم عبدالقاهر في تلك العصور كانوا يريدون أن يوضحوا ويبينوا آراءهم ونظرياتهم فقط؛ الأمر الذي على رأينا ليس بسيئ بل بعض الأحيان الشرح والتفصيل أرجح وأفضل لفهم موضوع أو نظرية علمية.

فعلى سبيل المثال في باب التقديم والتأخير المدروس في هذا المقال عبد القاهر قد تطرّق بصورة دقيقة إلى الجوانب والزوايا المختلفة لأسباب التقديم والتأخير ووضّحها وشرحها شرحاً كاملاً لا نراه عند سابقيه كسيبويه وتالييه كاللغويين الغربيين من جملتهم هليدي وهذا يدلّ على سبقة الجرجاني على نظرائه اللغويين مسلمين أو غربيين.

المصادر والمراجع

١. ابن ظافر الشهري، عبد الهادي (٢٠٠٤م). استراتيجيات الخطاب. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة.

٢. إسماعيل نعيم، مزيد (١٩٩٩م). سيبويه البصري. دمشق؛ بيروت: دار ابن كثير.

٣. اعلايي؛ مريم (١٣٨٨هـ). بررسي كتابهاي علوم انساني (سازمان سمت) در چارچوب دستور نظام مند نقشگراي هليدي از منظر فرانقش متني وبينافردي، پايان نامه دكتري زبان شناسي همگاني، طهران: جامعة تربيت مدرس.

٤. بدوي، أحمد (دون تا). عبدالقاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية. ط ٢، القاهرة: مكتبة مصر.

٥. الجرجاني، عبدالقاهر (١٩٨٤م). دلائل الإعجاز. القاهرة: مكتبة الخانجي.

٦. حرّي، أبوالفضل (١٣٨٨هـ). كاركرد تصريف در دو سوره قرآني ناظر به داستان آفرينش در پرتو فراكاركرد متني هليدي. مجله پژوهش زبانهاي خارجي، العدد ٥٥، الشتاء.

٧. حسان، تمام (١٩٧٣م). اللغة العربية معناها ومبناها. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتب.

٨. حسن أحمد، نوزاد (١٩٩٦م). المنهج الوصفي في كتاب سيبويه. بنغازي: منشورات جامعة قاريونس.

٩. سادات حسيني، راضية سادات (١٣٨٩هـ). دراسة في جذور آراء نحاة البصرة على ضوء المدارس اللغوية (الشكلية- الوظيفية). رسالة الماجيستر، طهران: جامعة العلامة الطباطبائي.

١٠. سيبويه، عمرو بن عثمان (١٩٩٠م). الكتاب. ط ٣، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

١١. القفطي، جمال الدين (١٩٥٢م). إنباه الرواة على أنباه النحاة. القاهرة: دار الكتب المصرية.

١٢. مدرسي، بهرام (١٣٨٦هـ). ساخت اطلاع وبازنمايي آن در زبان فارسي. پايان نامه دكتري زبانشناسي همگاني، طهران: جامعة تربيت مدرس.

١٣. مهاجر، مهران؛ ونبوي، محمد (١٣٧٦هـ). به سوي زبانشناسي شعر. طهران: نشر مركز.

١٤. نبي فر، ليلا (١٣٨٣هـ). كاربردهاي را در زبان فارسي امروز. پايان نامه كارشناسي ارشد زبانشناسي همگاني، طهران: جامعة العلامة الطباطبائي.

١٥. الهاشمي، أحمد (١٣٨٦هـ). جواهر البلاغة. قم: انتشارات دار الفكر.

١٦. ـــــــــــــ (١٣٨٩هـ). همبستگي سطوح روايت وفرا كاركردهاي هليدي در داستان حسنك وزير. مجله أدب پژوهي، العدد ١٢، الصيف.